مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 308 - 322

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

مكونات الخطاب الصّوفي من خلال ياقوتة سيد الشّيخ

Components of the Sufi discourse in Yaqouta of Sid-al sheikh

ط. با. بوعلام الله محمد [1] *، بن طرات جلول [2]

[1] جامعة جيلالي ليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، مخبر دراسات في الفكر الإسلامي، d2016med@gmail.com

[2] جامعة جيلالي ليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، djbentrat@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/12 تاريخ القبول: 2021/11/10 تاريخ النشر: 2021/12/30

ملخص:

لقد تنوعت أنماط الخطاب الصّوفي ما بين شعر ونثر؛ حيث نجد التّلازم بين الظّاهر والباطن، بين الإشارة والعبارة هو الخاصيّة المميزة لهذا النوع من الخطاب، ولا يمكن أن يفرز إلى الوجود خطاب صوفي إلا من خلال تجربة روحية ذوقية يمرّ بها الصّوفي من خلال ثنائية المقامات والأحوال، تعتبر قصيدة الياقوتة لسيد الشيخ أنموذجا لهذا الخطاب الذي من أبرز خصائصه الإغراب والتّعمية، لا لشيء إلا لأنّ اللغة غير قادرة على الإفصاح عما يختلج في صدورهم، ويجول بخواطرهم، من هنا جاءت هذه الدراسة من أجل الوقوف على أسرار هذا الإغراب، والكشف عن مقاصده وآلياته، انطلاقا من المنهج الصّوفي الذي قوامه الذوق، وروحه الرمز، وكيانه المصطلح الصوفي، كما تتقصد هذه الدراسة إبراز معالم التّصوف من خلال الموروث الصّوفي الجزائريّ لمنطقة الجنوب الغربي، اعتمادا على مقاربة تحليلية.

كلمات مفتاحية: الخطاب الصوفي؛ الياقوتة؛ سيد الشيخ؛ الرمز الصّوفي؛ المصطلح الصّوفي.

Abstract:

The styles of Sufi dicourse varied between poetry and prose, where we find the correlation between the visible and the invisible (inside), between the sign and the phrase is the defening characteristic of this type of speech, a Sufi dicourse cannot be brought into existence through a taste-spiritual experience that the Sufi passes through the duality of the maqamat wich means degrees of objective spiritual development or gains and the adverbs wich means degrees of spiritual self-development or talents .

The poem AL-Yaqouta by Sid al-sheikh is an example of this Sufi discourse wich characterized by the strange and the ambiguity speech, that's because language is unable to express their thoughts, and what's going on in their minds, and the aim of this research is identify the objectives behind that strange speech, and dicover its purpose and mechanisms , based on the Sufi method, wich adopts special elements represented in taste(paranormal habits), sign, and the Sufi term .The study also aims to highlight the foundations of Sufism through the Sufi heritage (tradition) of southwestern Algeria.

Key words: Sufi discourse; AL-Yaqouta; Sid al-sheikh; The Sufi sign; The Sufi term.

* المؤلف المرسل.

www.manaraa.com

مقدمة:

التّصوف مذهب فكري و حركة أخلاقيّة يستند إلى خصوصيّة التّجربة الروحيّة التي تبلورت في رؤية منهجيّة ساعدتها على تأسيس معالم مذهب بقدر ما تعلّق به أربابه، بقدر ما قوبل بالرفض والإقصاء، بقدر ما أثار و لا يزال يثير جدلا حول خطابه وآليات قراءة هذا الخطاب؛ وذلك لقيامه على الرحلة من مدار المشاهدة إلى مدار الشهود.

الخطاب الصّوفي جزء من تراثنا العربي الإسلامي، وهو شكل من أشكال التعبير عن التّجارب الذوقية الوجدانية، فعلى قدر التّجربة الصّوفية تكون قوة الخطاب الصّوفي ومدى نجاحه في الإحالة على تلك الصّور المثالية؛ حيث يصير الخطاب الصّوفي "أسلوبا لإلغاء عناصر الثبات التيّ هيمنت على الحياة الإسلامية، وصفّدت الفكر بنمطيةٍ؛ قوامها الرؤية القارة على رتابة الظاهر، الممحية في جاهزية الصّيغ، فجاءت الأساليب الصّوفية مثيرة في تجاوزها إياها، مغايرة في استعلائها على تحديدية الفهم ومحدودية المكان"(ياسين بن عبيد، 2007، ص.28)، كما أنّ الخطاب الصّوفي في حدّ ذاته عبارة عن إفرازات التجربة والمعايشة الحية والمعراج الروحي؛ لذلك نجد أن الصوفية يعتمدون على المعاني الذوقية، وأول ما يصادف الدارس لهذا الخطاب هو الغموض وصعوبة الفهم، وهذا ما نلمسه من خلال قصيدة الياقوتة لسيد الشّيخ التي لم تشذّ عن القاعدة العامة للخطاب الصوفي؛ فكيف تمكن سيد الشّيخ من نقل هذه التّجربة عبر الياقوتة؟ ومن أجل إثراء هذه الإشكالية، لا بدّ من الإجابة على الأسئلة التالية:

- ما مكونات الخطاب الصوفي في ياقوتة سيد الشيخ؟
- ما الدوافع و الأغراض التي من أجلها نظم سيد الشيخ ياقوتته المباركة؟
- ما مكانة الياقوتة في طريقة سيد الشيخ الصوفية؟

ولقد ساق الباحث هذه الورقات على منهاج الوصف والتحليل حتى يرصد أهم الرموز والإشارات والأحوال التي تعتري الأقطاب الصوفية، ويحللها تحليلا يبين عن السنن الخاص المتبع لديهم، والذي يدل على نبوغ لغوي فذ وسمو روحي وذوقي استثنائي يشير إلى براعة عاطفية ولسانية اتحدتا فانبثقت عنها أمثال هذه الأنظام الزاهرة والدرر اللوامع من عيون الأدب والتجربة الصوفية الفريدة.

www.manaraa.com

1. الخطاب الصوفي الشعري:

لقد تنوعت أنماط الخطاب الصّوفي ما بين شعر ونثر؛ حيث نجد التلازم بين الظاهر و الباطن، بين الإشارة والعبارة هو الخاصية المميزة لهذا النوع من الخطاب، ولا يمكن أن يُفرز إلى الوجود خطابٌ صوفيّ إلا من خلال تجربة روحية ذوقية يمرّ بها الصّوفي من خلال ثنائية المقامات والأحوال، "وما يميز هذه التّجربة الصّوفية هو ملازمتها للشّعر، و اقترانها به اقترانا عاجلا في الزمن ملحّا في المضمون، إلى درجة استحالة الفصل بينهما في الأغلب؛ لأن الإنسان لم يع سلطة الكلام بوصفه أداة للمتعة و التأمل إلا في الممارسات الدينية" (ياسين بن عبيد، 2007، ص. 21)، فيعبر عنها بما يهديه الله إليه، وقد وجد التّصوف في الشّعر "قالبا سخيا للصياغة، أطلّ منه إطلالات لا خلاف فيها أنها ناضجة العبارة، قوية الفكر؛ مستثمرا- ما يسميه مارتن هيدغر **Martin Heidegger**- بالسّمّو في الشّعر و العمق في الفكر، وظلّت العلاقة الوثيقة بين الشّاعر و الصّوفي محاولة انطلاق عن العالم العبثي؛ بحثا عن أفكار أكثر تجريدا تشفّ خلالها الحقائق الكونية" (ياسين بن عبيد، 2007، ص. 22) .

لقد جادت قريحة سيد الشّيخ في هذا الباب بقصيدة تائية سمّاها الياقوتة؛ مقتفيا في ذلك أثر كثير من الصّوفية الذين تركوا لنا ثروة من القصائد التائية، التي لا يمكن أن يأتي بمثلها زمان، من ذلك:

- **تائية أبي حامد الغزالي يقول في مطلعها**

نور تجلّى وجه قدسك دهشتي ***وفيك على أن لا خفا بك حيرتي

فيا أقرب الأشياء من كل نظرة *** لأبعد شيء أنت عن كل رؤية

ظهرت فلما أن بهرت تجليا *** بطنت بطونا كاد يقضي بردتي

- **تائية الشيخ عبد القادر الجيلاني يقول في مطلعها**

وَلَمَا صَفَا قَلْبِي وَطَابَتْ سَرِيرَتِي*** نَادَمَنِي صَحْوِي بِفَتْحِ الْبَصِيرة

شَهِدْتُ بِأَنَّ الله مَوْلَى الْوِلاَيَةِ***وَقَدْ مَنَّ بِالتَّصْرِيفِ فِي كُلِّ حَالَةِ

www.manaraa.com

المعروفة بـ«التائية الكبرى»، قصيدة شهيرة نظمها الشاعر الصوفي ابن الفارض، في التصوف، جمع فيها كلّ معاني الحبّ الصّوفي، بأسلوب سلس وعبارة قويّة، وقد أودعها من حسن الوصف وبراعة الصنعة ما جعلها من أجمل قصائد التصوّف على مرّ العصور، وربما بسببها لقب بـ«سلطان العاشقين»؛ لأنه جاء فيها بكل معاني العشق ورموزه الصوفية، فهي من هذه الناحية ديوان للحبّ الإلهي، ومعجم لمصطلحاته الذوقية، يقول في بدايتها :

سقتني حميا الحب راحة مقلتي***و كأسي محيا من عن الحسن جلت

ولم تشذّ عن ذلك تائية الولي الصالح، سليل الدوحة الصديقية البوبكرية، سيد الشّيخ عبد القادر بن محمد المعروفة بالياقوتة؛ حيث يقول في مطلعها:

بدأت بحمد الله قصدا لنجح ما***أروم من استفتاح نظم القصيدة

1.1. ترجمة سيد الشيخ ناظم الياقوتة:

هو العارف بالله، الولي الصّالح، مؤسس الطّريقة الشّيخية: سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي السماحة، وقد قيّد هذا النسب في الياقوتة، فقال:

فإنني عبد القادر بن محمد***سليل أبي الربيع نجل السماحة

ولد سنة 940 هـ الموافقة لسنة: 1533 م، تعلم مبادئ اللغة العربية و الفقه و القرآن على يد فقهاء من بني عمومته، ثمّ درس على مجموعة من المشايخ، منهم: سيد الحاج بن عامر شمال أربوات وسيدي عبد الجبار، وسيدي أحمد بن موسى الكرزازي. (عبد القادر خليفي ،2006، ص. 27) .

أخذ التّصوف عن العلامة المربي الشّهير سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي الشاذلي، وقد أشاد بذكره في سلسلة سنده الصّوفي المتصل، فقال:

فأولهم في الذكر شمس وجودنا***و قطب نهى علومنا اللدنية

إليه انتهت رئاسة القوم فارتقى***على صهوات المجد من غير مرية

أبو عبيد الإله يسمى محمدا***إلى عبيد الرحمن يعزى في نسبة

www.manaraa.com

عليه سلام الله ما ذرّ شارق***و ما غنّى طير باللغات الحنينة

فعنه أخذنا أعني عن قمر الدجى***ورثنا طريق القوم دون استرابة

انتقل سيد الشّيخ إلى بلدة فقيف، بعد أن رشّحه شيخه ابن عبد الرحمن السّهلي لمهمة دينية قائلا له:"استعد يا بني لزيارة هذه الأرض الشاسعة التي هي ميدان لأمثالك الذين ندبوا أنفسهم لعبادة الله، ستذهب وسط هؤلاء الرجال الذين يتحركون تائهين دون اتجاه، ستكوّنهم و تهديهم باسم عربون الحماية الذي استودعتك إياه، تعليم الشاذلية حسب طريقتي" **(Trumelet(c) 1982:1421)** .

وفي بلدة فقيف اهتمّ عبد القادر بن محمد بتربية المريدين، بعد أن أنشأ زاوية تسمى"العباد"، وقصده الناس من جهات عديدة، وهنا عُرف باسم سيد الشيخ، وأصبحت زاويته مقصدا للناس يأتون من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم، ولينتسبوا إلى الطريقة الشيخية. (ميلاد عيسى، 1986، ص.07)، إلا أن سيد الشيخ، لم يَخْلُ له الجوّ، بل تعرض لانتقاد فقهاء بلدة فقيف الذين اتهموه بالشّعوذة والبدعة، وحدث بين الطرفين ما هو معروف من صراع بين أهل الظاهر و أهل الباطن، كما ناصبه العداء ابن أبي محلي الفيلالي صاحب زاوية بني عباس، الذي ألّف حول ذلك الصراع كتابا سماه "المنجنيق"، كما أشار إلى ذلك في رحلته الموسومة بـ"الإصليت"؛ متهما سيد الشيخ بالبدعة والزندقة.

ولعلّ هذه الصّراع بين سيد الشّيخ ومن عاصره من الفقهاء-خاصة ابن أبي محلي- ورميه بالابتداع في الدين والشعوذة، وبعض الممارسات التي أنكروها عليه، كان هو السبب الرئيس في نظم قصيدة الياقوتة، وسيأتي بيانه قريبا.

لقد اشتهر سيد الشيخ بكثرة التّنقل والتّرحال من مكان إلى آخر، فقد زار مدينة فاس وتلمسان ووهران، وزار قبائل بني عامر في منطقة سيدي بلعباس، وعين ماضي على أطراف جبل العمور، وزار قورارة، وزار توات وتافيلالت(عبد القادر خليفي، 2006، ص. 18) .

وبعد هذه الحياة العامرة بالسير إلى الله-عزّ و جلّ- علما وسلوكا وتربية وجهادا، وافته المنية سنة:1616م، ببلدة ستيتن، ليدفن بالحاسي الأبيض(عبد القادر خليفي، 2006، ص. 18) .

www.manaraa.com

الذي أصبح يسمى "الأبيض سيد الشيخ" منذ ذلك التاريخ، ولقد أوصى الشيخ خلفه ومريديه بإتباع الطريقة الشاذلية، ونظم لهم قصيدة الياقوتة، التي يبرز فيها تجربته الصوفية و معراجه الروحي.

2.1. الياقوتة: التسمية- الأغراض- البنية:

تعتبر ياقوتة سيد الشّيخ عبد القادر بن محمد من القصائد الشّعرية الصّوفية، وهي ثمرة تجربة صوفية ذوقية مرّ بها الشيخ، فجادت بها قريحته تائية، بمجموع مائة وثمانية وسبعين (178) بيتا من البحر الطويل. تعتبر هذه القصيدة من أهمّ وظائف الطّريقة الشّيخية، كما أنه يفتتح بها ويختتم كثير من المجالس؛ لا سيّما في المناطق التي تنتشر فيها الطّريقة.

1.2.1. سبب التسمية:

سمّى سيد الشيّخ قصيدته بالياقوتة، والياقوتة نوع من الأحجار الكريمة، قد تكون حمراء وقد تكون زرقاء، ولعلّ هذا هو السّرّ في كون مريدي الطّريقة يتخذون سبحة أولها قطعة من الياقوت الأحمر، وقد اختار سيد الشيخ هذا الاسم- فيما يظهر- لأربعة أسباب:

الأول/ما صرّح به في قصيدته الياقوتة؛ حيث إنه ذكر فيها سلسلة سنده الصّوفي، وهم المشايخ الذين توصل بهم إلى سلوك طريق التصوف، بدءا من شيخه المباشر: محمد بن عبد الرحمن السهلي، وانتهاء بسيد الوجود نبينا محمّد- صلى الله عليه وسلم-؛ رفعا لقدرهم، واعترافا بفضلهم، وتنويها بشأنهم، وإلى ذلك أشار بقوله:

فأولهم في الذكر شمس وجودنا***و قطب نهى علومنا اللدنية

إليه انتهت رئاسة القوم فارتقى***على صهوات المجد من غير مرية

الثاني/ لمّا كان الياقوت حجرا كريما تميل إليه النّفس وترغب فيه، كانت هذه القصيدة بين القصائد كذلك؛ وذلك لما أشارت إليه من أحوال شريفة، وأخلاق زاكية زكية، ومعارف ذوقية راقية، ولما تضمنته من النصح لعباد الله، والدعوة إلى ملازمة التقوى، والتحلي بمكارم الأخلاق، والاندراج في سلك المسالك، والابتعاد عن طريق المهالك، فكان الياقوت مناسبا لذلك إشارة، فقربه سيد الشيخ إلى القلب عبارة.

www.manaraa.com

الثالث/ الاقتباس من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى:{ كأنّهن الياقوت و المرجان}، وقد استلهم سيد الشيخ النّصّ القرآني في قصيدته في مواطن كثيرة.

الرابع/ ما يحمله هذا الحجر الكريم من خصائص لا توجد في غيره؛ أكثرها ملاءمة للمنحى الصّوفي هو الصفاء؛ ذلك أنّ الياقوت لو خرزنا فيه سلكا فسيظهر ذلك السلك كما هو، ولعلّ هذا هو السّرّ في تشبيه الحور العين به، قال القرطبي: "روى الترمذي عن عبد الله بن عباس عن النبي- صلّى الله عليه وسلّم- قال:"إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة حتى يرى مخّها"...فأمّا الياقوت فإنّه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لأُريته من ورائه...وقال الحسن: وهنّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان"(أبو عبد الله القرطبي، 2006، ص.ص. 156-157) .

2.2.1. أغراض نظم الياقوتة:

من خلال النظر في هذه القصيدة المباركة، وبناء على ما تمّ الإشارة إليه في ترجمة صاحبها، يمكن الوقوف على ثلاثة أغراض ألجأت سيد الشيخ إلى نظمها، أوجزها فيما يلي:

الغرض الأول/ كلّ ممارسة ذوقية وكلّ تجربة صوفية يجد صاحبها من الأحوال والمواجيد ما الله به عليم، ولا شكّ أنّ التّجربة الصّوفية من أقوى التّجارِب التي يعيشها أصحابها وأعنفها، فلا ريب أن يهتزوا لها هزاً قويا، ويظهر ذلك التأثير من خلال جملة من الأحوال و الأذواق التي تستحوذ على النفس بشكل منقطع النظير، فيلجأ أصحاب التّجربة إلى أحد السبيلين؛ إمّا التلبيس على التّجربة الصّوفية ومحاولة حجبها، صونا للسّرّ وكتمانا للحقيقة؛ لأنه غير مأذون له في البوح لغلبة ذلك على القلب مما سبّب خرسا لصاحبها، وإما التّنفيس عن التّجربة بشكل من أشكال البوح؛ مثل الصرخة، أو الصعقة، أو الكتابة وغيرها؛ وهذا الذي جنح إليه سيد الشيخ.

الغرض الثاني/ تقدم في ترجمة سيد الشّيخ أنّ شيخه محمد بن عبد الرحمن السهلي قد كلّفه بمهمّة نشر الطريقة الشّاذلية على ما أذن له به، فقام بهذه المهمّة أحسن القيام بمنطقة فقيف، فلما توفي شيخه أسّس زاوية "العباد" وتولى فيها التدريس و التّربية؛ فرأى أنّ من الواجب عليه أن يضع للمريدين منهجا يسلكونه، وطريقا يسيرون وفقه، حتى لا يحيدوا عن سنن الهدى، ومعالم التقى، فنظم لهم الياقوتة؛ مرشدة للخير ودالة عليه، ومبينة لطريق السلوك، وموضحة لمقامات

www.manaraa.com

اليقين، وجامعة لعلوم القوم؛ طريقة أسلاف بيضاء نقية؛ فكانت الياقوتة بذلك دليل السّلوك في طريقة سيد الشيخ، وهذا ما أشارت إليه الياقوتة من البيت رقم:108إلى البيت رقم:144.

الغرض الثالث/ بعد أن أسّس سيد الشيخ طريقته و كثُر أتباعه ومريدوه لقي عداء كبيرا من بعض الفقهاء بالمنطقة، وفي مقدمهم الفقيه ابن أبي محلي الفيلالي، الذي جاهر بالعداوة لسيد الشيخ، واتّهمه بالشّنائع والمنكرات، و وصفه بالبدع والمحدثات.(عبد المجيد القدوري، 1411، ص.ص. 46-49) . هذه التّهم بعثت سيد الشّيخ على نظم قصيدة الياقوتة؛ من أجل بيان حاله وعقيدته، وأنّ الطريقة التي ارتضاها هي طريقة أسلاف بيضاء نقية، لا يشوبها دخل، ولا يكدر صفاءها خلل، طريقة تتقصد تهذيب النفوس، وتزكية الأخلاق، ودوام المراقبة لله، طريقة مقيدة بالكتاب والسنة، وفي ذلك يقول:

فبالاتباع نلنا مرتبة العلى***فبالله ما حدنا عن شرع و سنة

ولا تسمعن قول عاد معاند***حسود لفضل الله بادي التعنت

بعد أن بيّن ناظم القصيدة أنه بريء من جميع ما نُسب إليه من باب التّخلية، بيّن للمريدين ما يجب عليهم أن يتحلَوْا به من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وجميل الصفات، وأوضح منهجه التّربوي، الذي يهدف من خلاله إلى ردّ الناس إلى الطريقة الصحيحة، وربطهم بالهديّ النّبويّ، والشّريعة المحمديّة، ويبعدهم عن مغريات الحياة، ويقلّل اهتمامهم بالماديات، ويدفعهم إلى الإقبال على النّفوس؛ استكمالا لفضائلها، وجبرا لكسرها، وعلاجا لأدوائها، كل هذا يدلّ دلالة لا مجال للشّكّ فيها أنّ ما رُمي به سيد الشّيخ بعيد كلّ البعد عن شخصه وسيرته.

هنا تجدر الإشارة إلى أنّ ما حصل من صراع بين الفقيه ابن أبي محليّ والوليّ الصّالح سيد الشيخ إنمّا هو صراع زعامة، سببه- فيما يظهر- سياسي لا غير؛ حيث إنّ ابن أبي محليّ كان يهدف إلى بسط سلطته ونفوذه على المنطقة؛ مستغلا مكانة سيد الشيخ بين الناس عامة، ومريديه خاصة، ومتوسلا بالمصاهرة التي كانت بينه وبين سيد الشيخ، فلمّا لما يطاوعه سيد الشّيخ، ولم يقبل بمشروعه، انقلب عليه، وأطلق لسانه فيه بالثّلب والمعايب.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كون ابن أبي محليّ من الفقهاء الذين ينكرون تصوّف الأحوال، فكان هذا الصراع نتيجة حتمية ومنطقية.

www.manaraa.com

وعليه فإن التُّهم التي رُمي به سيد الشيخ لا يمكن بحال من الأحوال عزلها عن سياقها التّاريخي، فهي تهَم تنقصها الموضوعية والإنصاف، وتلوح عليها سمات الذاتيّة والتّعصب، وقديما قال الشّاعر:

وما أحد من ألسن النّاس سَلِماَ***ولو كان ذاك النبيّ المطهّرُ

3.2.1. بنية الياقوتة:

تعتبر الياقوتة من أهمّ الآثار الصّوفية الباقية إلى يوم النّاس هذا، وقد سار فيها سيد الشّيخ على طريقة الأسلاف في هذا الباب؛ حيث نحا فيها منهج من سبقه من أعلام الهدى، ومنارات التقى من أعلام التصوف ورجالاته، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض قصائدهم الصّوفية، وعلى العادة نجد سيد الشّيخ قد ركّب قصيدته وَفْق الهندسة التالية:

- **المدخل: من البيت الأول(01) إلى البيت السادس(06).**

وقد تضمن هذا المدخل الافتتاح بالحمدلة والصّلاة على النّبيّ- صلى الله عليه وسلم -؛ مصداقا لقوله- صلى الله عليه وسلم-:"كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله، فهو أجذم"، وفي رواية: «أبتر»، وفي رواية: «أقطع»، والمقصود أنه: قليل البركة، مع توظيف براعة الاستهلال في الإشارة إلى الغرض من نظم هذه القصيدة؛ وذلك في قوله:

ومهما اجتبى عبدا سعيدا لقربه***تخيّره و ذاك ليس لعلّة

- **القسم الأول: من البيت السابع(07) إلى البيت الثاني والتسعين(92).**

تضمن الإشارة إلى تجربة النّاظم السّلوكية؛ باستخدام الرّمز الصّوفي، وتوظيف المصطلح الصّوفي، بلغة راقية، واقتباسات دقيقة، كلّ ذلك يدلّ على رسوخ سيد الشّيخ، وتعرّضه لنفحات الله القدسية، وفي ذلك يقول:

فإنّ مواهب الكريم تعاظمت***لدينا من غير حول منّا وقوة

- **القسم الثاني: من البيت الثالث والتسعين (93) إلى البيت التاسع والتسعين (99).**

www.manaraa.com

تضمن هذا القسم الردّ على المخالفين والمنتقدين، الذين حاولوا النيل من جناب سيد الشيخ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك؛ حيث تمّ تبرئة ساحة سيد الشيخ من كل ما رُمي به.

- **القسم الثالث: من البيت المائة (100) إلى البيت السابع عشر بعد المائة (117).**

في هذا القسم بيّن سيد الشّيخ أصول وآداب الطريق؛ حيث قرّر البدايات ثمّ المجاهدات، ليصل بعدها إلى النهايات.

- **القسم الرابع: من البيت الثامن عشر بعد المائة(118) إلى البيت الثامن والخمسين بعد المائة(158).**

هذا القسم خصصه سيد الشيخ للسند الصوفي، والإسناد من الدين، فلولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، كما أنّ الإسناد سبب تحصل به الثقة في التلقي عن المشايخ.

- **القسم الخامس: من البيت التاسع والخمسين بعد المائة(159)إلى البيت الثامن والستين بعد المائة(168).**

خصّصه الناظم للنّصح، وذلك بقَبول ما جاء به الناظم والتسليم له، وفي ذلك يقولون: من ذاق عرف، ومن لم يذق وسلّم فقد عرف.

- **خاتمة القصيدة: من البيت السبعين بعد المائة(169)إلى البيت الثامن و السبعين بعد المائة(178).**

2. الرمز في ياقوتة سيد الشيخ:

لئن كانت اللغة عند ابن جنّي"أصواتا يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"(ابن جني، د ت، ج 1، ص.33) فإن للصوفية لغتهم الخاصة التي حاولوا التعبير بها عن الأغراض والمرامي الذّوقيّة التي اختصّوا بها، وتعارفوا فيما بينهم على الدلالات الرّوحية للّفظ الواحد فيها، هذا اللفظ الذي يكتسي عند القوم مفهوما مغايراً لما اعتاده النّاس؛ حيث يأخذ مفهوما اصطلاحيا خاصا بهم، وقديما قالوا: لا مشاحة في الاصطلاح؛ لتشكل هذه الاصطلاحات الصّوفية الأبجدية العامة في لغة أهل الطّريق، مكونة بذلك أبجدية الإشارات والتلويحات المخبوءة في العبارات التي تكّلموا بها وفي الآثار المكتوبة التي بقيت بعدهم.

www.manaraa.com

ولهذا يجد القارئ للتّراث الصّوفي رمزا غريبا، ونسقا عجيبا، وبعدا عن التّصريح، وركونا إلى التّلويح، واعتمادا على الإشارة، وإهمالا للعبارة، وعلاقات خفية في التجوز بالكلام، وفي هذا الصدد يقول أبو العلا عفيفي: "المعروف عن الصوفية إطلاقا أنهم قوم لا يتكلمون بلسان عموم الخلق، ولا يخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر، وإنما يتكلمون بلسان الرمز والإشارة" (أبو العلا عفيفي، د ت، ج 1، ص.15)، ومن هنا كان الرمز وسيطا بين الصّوفي وعالمه الخارجي، أو أداة يستعملها في تنظيم تجربته بعيدا عن الإكراهات التي يفرضها التعبير المباشر، فالرمز ليس ميزة لغوية فحسب، بل هو شامل للحياة في مختلف مناحيها.

فالرمز بهذا الاعتبار"أسلوب ألجأتهم إليه الحاجة، فهم يتكلمون أو يكتبون عن مشاهد لا عهد للغة بها، فمن الطبيعي إذن أن يلجأوا إلى هذا الأسلوب الذي يعينهم بعض الشيء على نقل أفكارهم وتصوير إحساساتهم" (حسان عبد الكريم، 1954، ص318).

وبهذا لا يكون الصوفي هو من يصوغ الرمز سيطرة على الأشياء، بل الأشياء والحقائق والموجودات هي التي تظهر من خلال الرموز التي هو واحد منها، إذ قد تنوّعت طرائق الرمز في الياقوتة بحسب المحطات الذوقية التي مرّ بها سيد الشيخ، ففي كلّ محطة تحاول روحه التحليق في سماء الحقّ فانية عن الخلق، فنجدها قد تماهت في حالات نفسية مختلفة، ليجنح سيد الشيخ إلى التعبير عنها برموز مختلفة مناسبة للمستوى الوجداني الذي يعصف به، ومن خلال النظر في ياقوتته المباركة يمكن الوقوف على ثلاثة أنواع من الرمز، هي كالتالي:

1.2. الرمز الإنساني:

الإنسان بأصليه البدن والروح رمز الوسطية بين عالمين اثنين هما: عالم الحسّ وعالم الروح، وصفة الإنسان إنما تتحقّق باتّصال الروح مع البدن، يقول الجرجاني مفرقا بين الإنسان والإنسان الكامل، أي الإنسان المادة والإنسان الرمز: "الإنسان هو: الحيوان الناطق، الإنسان الكامل هو: الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية، والكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية... فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقها بعينها ونسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه، وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير، كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان، ولذلك يسمى الإنسان بالعالم الكبير" (الجرجاني، دت، ص.165).

www.manaraa.com

والرمز الإنساني يستقي عناصره من معين النّفس الإنسانيّة ومستلزماتها؛ حيث نجده يختلف باختلاف الموضوع المتناول كالمحبة ودواعيها من شوق وأنس ووله وشغف، وذكر الخمر وما يتعلّق بها من رِيّ وسُكْر، ومن خلال النظر في ياقوتته المباركة يمكن الوقوف على مجموعة من الرموز تندرج تحت هذا النوع.

- من ذلك: **السفر** في قوله:

ولما رأيت القوم جدّوا في سيرهم***إلى المقصد الأسنى بصدق العزيمة

- من ذلك: **النفس** في قوله:

جرت للتأسّي نفسي ثم تعلّقت***بأذيال أرباب النفوس الأبية

- من ذلك: **الشوق** في قوله:

فلمّا أديرت الأباريق بيننا***من الشّوق تتلوها كؤوس المحبّة

- من ذلك: **السُّكر** في قوله:

سكرنا وهمنا بالشّراب فبينما***أنا بين حال غيبة وإفاقة

- من ذلك: **السّرّ** في قوله:

ولولا فشوّ السرّ كفر بعينه***لبحت به ولكن أولى التصمّت

- من ذلك: **الخلافة** في قوله:

فلمّا رأى رضائي ليس بدونه***كساني رداء قربه والخلافة

وقد تعدد الرمز الإنساني في قصيدة الياقوتة، حسب ما تقتضيه حال الشيخ، وبالتتبع يمكن رصد الرموز التالية: الشرب، الإرادة، المشاهدة، الفناء، المعرفة، الترقي، الحياء، الحبّ، الأنس، الإشارة، المحبة، الوصول، العطش، الري، اللوعة، الفراسة، وهذه الرموز تنتظم ضمن نسق معرفي، يقوم على منهج الذوق، ويتوسل بالإشارة استغناء عن العبارة، وبالتلميح استعاضة عن التصريح؛ وهذا صيانة لسر المعاناة التي يمر بها سيد الشيخ.

www.manaraa.com

2.2. الرمز الكوني:

وهذا النوع يستقي عناصره من الكون المادّي الحسّي ومحتوياته، من أجرام علويّة وسفليّة، فتصبح الظواهر الطبيعة رموزا تنتظم نسق الكون والوجود، وتفتل حباله التي يعتصم بها الصوفي ليحظى بوصل محبوبه، لتصبح هذه المظاهر انعكاسا وتجليا لجمال ذات هذا المحبوب، وما سواه من هذه الظواهر ما هو إلا أغيار عند معانقة الصوفي لأفق الكشف و فنائه في محبوبه، فنجد سيد الشيخ قد وظّف في الياقوتة: الطبيعة واحتفى بها، وولع بما تحمله مكوناتها من صور ومشاهد بديعة الجمال، فالطبيعة قد غدت شفرة أو شفرات يقرأ فيها الصوفي بضرب من الكشف لغة ذات حدين: أحدهما حسي فيزيائي، والآخر روحي إلهي، فالأول: تمثله التجليات المتنوعة للذات الإلهية في مظاهر الطبيعة من جمادات وأحياء، والثاني: تمثله تلك الترجمة الدقيقة لهذه المظاهر، وبالرجوع إلى ياقوتة سيد الشيخ يمكن الوقوف على مجموعة من الرموز تندرج تحت هذا النوع:

- من ذلك: **الخمر** في قوله:

ونحن نشاوى نلتقي شرب خمرها***بكلتا اليدين في الأواني المعدّة

- من ذلك: **الحجاب** في قوله:

ولا الفرق أيضا حاجب لاجتماعنا***ولا الجمع لي عن ذاك جاء بعكسة

- من ذلك: **الطريق** في قوله:

سلكت طريقا لم يطأها خلافنا***ولم يسلكنها غيرنا من خليفة

وقد تعدد الرمز الكوني في قصيدة الياقوتة، حسب ما تقتضيه حال الشيخ، وبالتتبع يمكن رصد الرموز التالية: الموائد، الرداء، البحور، خلع النعل، المياه، البداية، المطر، الغيم، القلم، الياقوتة.

3.2. الرمز العرفاني:

يقصدون به تلك الألفاظ التي يسوقها الصوفي العارف، وتكون أقرب دلالة في حالة تلوح له ليس لها في الدلالة اللّسانية ما يدلّ عليها، وهو ما يندرج تحت العرفان التام، وتستقي هذه الرموز

www.manaraa.com

عناصرها من المعاني المجردة المتأتاة عن الممارسة والذوق والمشاهدة والكشف والخواطر التي تلامس قلب العارف والأحوال والمنازلات.

وبالرجوع إلى ياقوتة سيد الشيخ يمكن الوقوف على مجموعة من الرموز تندرج تحت هذا النوع، من ذلك:

- **الحال** في قوله:

وحال لها حوى الأصول بأسرها***طريقة أسلاف بيضاء نقيّة

- **جمع الجمع**:

لها الجمع جمع الجمع جمع اتّحادها***أصول لها شهود في كلّ لمحة

وقد تعدد الرمز العرفاني في قصيدة الياقوتة، حسب ما تقتضيه حال الشيخ، وبالتتبع يمكن رصد الرموز التالية: الدنو، الفرق، عين البصيرة، المقام، السلوك، الحضرة، الحقيقة، النهاية، الصحو، الحال، جمع الجمع، الولي، الولي، الغوث، الستر.

خاتمة:

وفي الختام يمكن القول: إنّ التصوف تجربة جمالية سواء على مستوى: الممارسة أو على مستوى الخطاب أو على مستوى استلهام المعاني؛ خاصة عندما تفرز التّجربة الصّوفية خطابا مليئا بالإشارات والرموز، التي قد تتجاوز حدود الزمان والمكان، بَلْهَ في بعض الأحيان تتخطى أسوار الشريعة باديَ الرأي، هذه التجربة الجمالية التي تعتمد لغة خاصة، تجنح من العبارة إلى الإشارة، ومن التصريح إلى التلميح؛ هي ما يجعل اللغة تضيق عن استيعاب تلك المعاني القدسية التي تهجم على النفس، فتحلق بها في سماء القدس، وتنقلها من طغيان المادة إلى لطافة الروح، وسرّ ذلك- والله أعلم- هو ذلك التجاذب بين المطلق والنسبي؛ فالإشارة عند القوم عتبة بين المقدس والمدنس، بين الغيب و الشهود، بين المحدود وضدّه، وإن شئنا قلنا بلغة القوم: إنها مجمع بحري المعاني والأواني.

ولعلّ سيد الشيخ من خلال ياقوتته أراد الوقوف على هذه المعاني الجمالية التي هي في حقيقتها انعكاس للجمال الإلهي، في أبعاده الميتافيزيقية والأنطولوجية؛ فلذلك لم تسعفه اللغة

www.manaraa.com

المألوفة في تأدية هذه المعاني التي قوامها الذوق، وغايتها الحب الإلهي، ولعل هذا هو السبب الرئيس في استغلاق اللغة الصوفية وتعقيدها.

كما أنّ الصوفية ينزعون إلى أن تبقى أسرارهم مكتومة لا يفتضها وهم واهم، ولا يكدر صفوها زعم زاعم، وهذا المنهج مطرد في تراث متصوفة الأحوال.

ويمكن أن نوجز أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط التالية:

- اللغة الصوفية لغة رمز وإشارة تبحث عن الباطن ولا تعول كثيرا على المباشرة.
- يعتبر الرمز والمصطلح الصوفي الأساس في بناء هذه قصيدة الياقوتة.
- يتنوع الرمز في الياقوتة ما بين إنساني وعرفاني وكوني.

ولا تزال هاته القصيدة تحتاج إلى دراسة وافية من حيث البيئة التي نظمت فيها، والظروف السياسية والاجتماعية التي أنتجتها، كما أنها تفتح آفاقا للبحث في لغة التصوف وبعدها الجمالي الفلسفي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن جني، أبو الفتح عثمان، (د ت)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ب ط، دار الكتب المصرية، مصر.
2. ابن عربي، محي الدين، (د ت)، فصوص الحكم، تعليق أبي العلا عفيفي، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
3. حسان عبد الكريم، (1954)، *التصوف في الشعر العربي*، نشأته و تطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
4. خليفي عبد القادر ، (2006)، الطريقة الشيخية ، ب ط، دار الأديب للنشر و التوزيع، وهران، الجزائر.
5. القدوري عبد المجيد، (1411هـ)، ابن أبي محلي الفقيه الثائر، ورحلة الإصليت الخريت، ب ط، منشورات عكاظ، الرباط.
6. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (2006)، الجامع لأحكام القرآن؛ تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
7. الكيالي عاصم إبراهيم، (2007)، الحقائق الإلهية في تائيات الصوفية، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
8. ميلاد عيسى، (1986)، الياقوتة، ترجمة: بن الطيب عبد الكريم بن محمد، ب ط، المطبعة المركزية وجدة، المغرب.
9. ياسين بن عبيد، (2007)، الشعر الصوفي الجزائري المعاصر(المفاهيم و الإنجازات)، ب ط، مطبعة الجيش، الجزائر.
10. Adolphe jourdan, (1982), l'Algérie legendaire Trumelet©, Paris.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):

بوعلام الله محمد، بن طرات جلول. (2021). مكونات الخطاب الصّوفي من خلال ياقوتة سيد الشّيخ. *آفاق فكرية*، سيدي بلعباس (الجزائر)، *9* (3)، 308-322 ؛ رابط المجلة *https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396*

www.manaraa.com